الرمس القائم ..

[illegible]

٥

« أُدخل » . اخترقت هذه الكلمة صماخ اذنيه فكان لها وقع مؤلم كريه . ونظر أمامه ، فوجد باباً حديدياً قد انفتح عن فوهة معتمة عفنة ، لا ترى خلالها دركة ، ولا تتميز جداراً ، ولا سقفاً ، ولا قراراً . قطعة من الظلمات قداستعدت لابتلاعه. وأحس بيد الحارس تدفعه الى الامام دفعاً هو الى الوكز أقرب . فتقدم غير مختار ، ومد قدمه حذراً في الظلام فكاد يكبو بالرغم من احتراسه ، اذ ما كان يرى موطيء قدمه، أدركة هي أم هوة أم ارض في مستوى الوصيد. واستقر على الارض ، بعد ان اصطدمت قدمه بها اصطداماً ، وسمع الباب يصفق وراءه فيحدث دوياً وزمجرة ، وعاد يتحسس طريقه مرة اخرى ، وعد ثلاث دركات قبل ان يتأكد بانه قد استوى فوق البلاط . وتقدم بحذر ، وما كاد يخطو خطوة واحدة حتى لطمه جدار ، فولى وجهه شطر اليمين ، فاستدار الى الوراء، وتقدم فتلقاه جدار آخر ليس أبعد مدى من سابقيه. يا للهول ، أزنزانة هذه أم قبر ؟ أجل انها قبر قائم ، يستطيع الانسان ان يقف فيه ولا يستطيع ان يتمدد او يضطجع . وعلل نفسه بامكان الاقعاء والتكور ، وأحس كأنه يستطيع ان يلمس الظلام الذي يكتنفه لمساً ، وانه يتنفسه ، بل انه لينساب في عقله من اذنيه وباصرتيه ، وارتعد بدنه لما شعر بالرطوبة الثقيلة تتسلل الى عظامه .

اذن فسيقضي ليلة بكاملها ، واقفاً أو مقعياً أو متربعاً في هذا القبر ، لكي يحقق معه في الغد . ولكن لِمَ كل هذا ؟ وما الذي فعل ليستحق هذا العقاب القاسي الذي أعد له قبل ان يدان لكي يدان ؟

وحاول ان يستعيد بعض تلك النصوص المسطرة في كتب الحقوق الضخمة ، تلك التي يقوم بتدريسها أساتذة يختالون بشهاداتهم الجامعية ،وبما حشروا في أذهانهم من مواد تلك القوانين وشروحها . ان التعذيب لغاية التحقيق ، وهو ما كان مباحاً في عصور الظلام ، يعتبر الآن جريمة منكرة . هذا هو منطق قوانينه ؟ إذن فهو مجنيّ عليه ، ولكن لمن المشتكى ؟

وافلتت من حنجرته قهقهة غير اختيارية ، ردتها الجدران كأنها تصفعه بها صفعاً . ان الواقع يدحض نصوص قوانينه ، وهوذا التعذيب للاعتراف ، وهذا هو الاول ، فاذا لم يفد فثمة انواع اخرى ، من حبس في المراحيض الفائضة ، وتعليق من الاكتاف ، وجر الأظافر بالكلاليب ، وكي الجسم بالمكاوي كما تكوى الثياب . اما الضرب والصفع والاهانة ، فتلك توابل من التوابل والمشهيات ، لا من الوجبات الأصلية .

ولكن كيف يعترف ، وبِمَ يعترف ؟ انه لم يفعل سوى ان شارك في مظاهرة ، وقد تبرع برفع العلم ، وتحمس اكثر من غيره فقاوم الشرطة مع من قاومها من رفاقه ، ولم ينهزم في أول المعركة ، فالتقطته سيارة الشرطة ، وحشرته مع من لم يستطع الهرب من رفاقه ، وجاءت بهم رأساً الى هذا السجن ، ثم الى هذا الجب ... وقطعت عليه مجرى افكاره صرخة حادة تنطق بالهول والرعب والألم ، اقتحمت عليه زنزانته ، من تلك الكوة الصغيرة في أعلى الباب، فتصبب جبينه عرقاً ، وانتابته رعدة اخرى .

وعاد يستعرض نصوص قوانينه، ودساتير بلاده الديمقراطية . انها تصرح بحرية التظاهر ، وتنص على حرية ابداء الرأي،وحرية المعتقد الديني والسياسي . ولم يفعل هو وبقية رفاقه . غير ان تظاهروا ، مستنكرين قراراً حكومياً خطيراً وجدوا انه في غير مصلحة بلادهم . هذا كل ما حدث، كان طلاب كلية الحقوق أشد شعوراً بخطورة هذا القرار من ناحيته القانونية ، فكانوا اول من استنكر وأعلن استنكاره . لقد استعملوا حقاً من حقوقهم الدستورية، فأين الجرم في كل ذلك ؟

ترى من يريد أن يقنع بمنطقه هذا ؟ أهذه الجدران الصماء التي تكاد تطبق عليه ؟ ام الظلمات الكثيفة المدلهمة ؟ لا ، ولكنه كان يعد العدة الى صباح الغد ، ويحضر ما سيدلي به ، وما سيقدم من حجج واعتراض واستنكار . ولم يعلم بالضبط كيف دهمه النعاس ، وكيف استطاع ان ينام ، وكل ما يتذكره هو أنه شعر بصداع شديد، وتعب قاتل فالتف على الارض التفافاً ،

وتوسد ذراعه ، ثم استغرقه نعاس مزعج ، بل كابوس مرعب . رأى نفسه في داره ، ممدداً على سريره ، في غرفته الخاصة. كانت الغرفة معتمة ، ولكنه كان يرى برغم ذلك ، وجوهاً كثيرة عزيزة ، ويسمع إجهاشات البكاء واصوات النحيب . هي ذي امه واختاه يندبنه وهن يلطمن الوجوه ويقطعن الشعور . كان يرى ويسمع ، ولكنه لا يستطيع حراكاً ولا كلاما . واعتراه رعب هائل ، ويأس قاتل لما رآهم يغسلونه ويكفنونه ويحملونه على الأعناق ، ثم ساروا به الى المقبرة ، ورأى اللحد قد شق له ، وشرع اصدقاؤه يدلون تابوته فيه باكين آسفين . ولما أحس بالتراب يهال فوقه ، استجمع كل قواه ، تحت تأثير نوبة حادة من اليأس والرعب ، واذا بقواه تعود اليه فجأة على أشد ماتكون ، فوثب في التابوت زاعقاً بصوت يصم الآذان ، فلطمه التابوت ، ورده الى موضعه ، فعاد يصرخ ويضرب التابوت بيديه وبكل جسمه ، وهو يبكي بكاء مراً ، ويصيح : « لست ميتاً ، لست ميتاً ، انني حي! » ، وأحس بأن التابوت الخشبي قد استحال جدراناً صماء ، وبأن غطاءه أصبح حديداً ذا رنين اخرس . فمضى يصيح ويصيح وقد جن جنونه .

وتميز وسط تلك الضجة التي أحدثها ، صوت مفتاح يدار في قفل ، ثم صرير باب يفتح ، وصوتاً اجش يهيب به « هيا اخرج » فمد يديه ناحية الصوت كالأعمى حين يتلمس طريقه ، وهو ما يزال يصيح مستغيثاً باكياً . واطبقت على كتفيه أيد قوية جرته جراً من ذلك الجب ، ثم شعر بانه يمشي بين اثنين في ممر طويل فتح في آخره باب . وأحس بالنور الساطع يخز عينيه وخزاً ، فغطاهما بيديه برهة ، ثم عاد يستقبل النور مترفقاً بعينيه ووجد نفسه في باحة السجن ، وكانت أشعة الشمس الباهرة قد ملأت الاكوان ، وشعر شعور ميت يعود الى الحياة ، فتطلع حواليه ، مرتجفاً مبتهجاً طاحراً ، زاحراً ، ناحماً ، ووجد ثلاثة من رفاقه يحيطون به مبهوتين مبغوتين ، وسأله احدهم « ما الذي جرى لك ؟ ولم تبكي وتصرخ ؟ هل ضربوك ؟ هل عذبوك ؟ »

وأجلسوه بينهم على مسطبة ، وأتاه احدهم بماء رش به وجهه ، وجرّعه قليلاً منه ، فتمالك روعه ، وعاد يملأ عينيه بصورهم ، وأجاب معتذراً خجلاً « لقد كنت في حلم غريب اختلط باليقظة اختلاطاً عجيباً ، ولو لم أركم ، وأرَ نورالشمس ، لما ايقنت بأني قد استيقظت . هل قضيتم ليالكم في زنزانة مظلمة كزنزانتي ؟ »

فهزوا رؤوسهم ايجاباً وقال له احدهم «سينادونك للتحقيق معك ، فقد طلبت قبل لحظة ، وأعتقد ان والدك قد سعى سعيه لاطلاق سراحك ».

وما كاد الصديق يفرغ من كلامه حتى صاح احد الشرطة باسمه ، فلبى النداء واقتيد الى غرفة فاخرة ، مؤثثة بأثاث فخم وثير ، ورأى كبير الشرطة وراء منضدته الفاخرة ، واباه جالساً على احدى الارائك ، وبجانبه آخر يحمل ملفاً كبيراً ، وهش له الأخير وبش ، واشار له بالجلوس الى جانبه .

قال ابوه : « لقد قضيت ليلة ليلاء كما اظن ؟ هذا عقاب مستحب ، جزاء تدخلك فيما لا يعنيك ، وما كنت اعلم انك من طراز اولئك الذين يهوون الشغب والفوضى ، والخير فيما حدث إذ صانك من الوقوع في شر اكبر . »

وعقب كبير الشرطة بقوله : « ان التقارير التي لدينا تشير الى كثرة اختلاطه بالمشاغبين في مدرسته ، وقد اشترك معهم فعلاً في قيادة مظاهرة امس ، ولكننا نعلم ايضاً بانه لم يشترك حتى الآن في الحركات السرية ، ولم يتورط في المبادىء الهدامة. »

ولم يجب بشيء، فقد شعر بثورة تعصف في رأسه، وباحتقار ومقت شديد لمن حوله . كان يريد الخروج مهما كلفه الامر . واستمر التحقيق معه نصف ساعة . ولم يخف على المحقق شيئاً ، فلم يكن لديه ما يستحق ان يخفى . وخرج مع ابيه بعد انتهاء الاستجواب ، وشيع الأب بالتجلة والاحترام .

وقال لأبيه : « أتراهم كانوا يطلقون سراحي بمثل هـذا اليسر ، لو لم تكن انت ابي ؟ » .

فأجاب الأب عابساً : « وما الذي يغنيك من أمر غيرك؟»

وتلقته امه واخته بين الاحضان ، وانطلقت بهم السيارة الفارهة نحو الدار الآمنة، وعطلها زحام في أحد الميادين العامة، فتطلع افراد العائلة منها ليستطلعوا مـأتاه ، وعلقت انظارهم بمشنقة شامخة تطاول السماء بكبرياء وحشية وقد تدلى منها رجل يتأرجح في الفضاء، فقالت كبرى الاختين : « لقد شنق هـذا الرجل لانـه اختلف مع السلطة الحاكمة في مدلول الحكم وأصوله ليس إلا ، بينما نرى الخونـة والسراق والمرتشين ، لا تنالهم عقوبة ، بل وان بعضهم ليتمتع بكثير من المجد والجاه . »

فرد عليها اخوها هازئاً : « يقول ابي ان علينا ألا نهـتم بشؤون غيرنا . »

فردت الام مؤنبة :« لِمَ تدسون انوفكم في امور لاتعنيكم ولا تفقهون خفاياها ؟ ان هذا مشاغب يريد قلب نظام الحكم . »

فتوثبت الاخت الصغرى وقالت متحمسة : « لقد تتبعت سير محاكمة هذا المسكين ، فلم اجد دليلاً واحداً يثبت مـا تقولين ، ولم يقم هذا بثورة ولا أجج فتنة ، بل كل ما هنالك انه اعلن رأيه في إدارة فاسدة، ورغبته في تغييرها ، ومن منا لا يشاركه في رأيه ؟ فهل نحن ايضاً نستحق الشنق ؟ »

فعاد الاخ الى سخريته واجاب : « لو كنا من طبقته لشنقنا حتما ، ولكن شكراً للجاه . »

فقال الاب غاضباً : كفى هذراً فقد رأيت عاقبة الطيش!

فأجاب الابن بابتسامة مرة : « اجل يا ابي ، لقد رأيت عجباً . لقد علمت ان كل ما هو مسطر في الكتب من انظمة وقوانين ما هي الا حبر على ورق . لقد عذبت دون ذنب ، واطلقت لسبب غير وجيه ، واردت الشكوى فوجدت ان الجدران لا تجيب ، والظلام لا يبصر ، والابواب لا تفهم ، فاقتنعت ، بعد تفكير ،بان من يروم الحرية ،والفكاك من اطباق الرموس ، عليه ان يحطم القيود تحطيما ، والا فليرض بالموت . »

بغداد **ذو النون ايوب**

نسجت من لُعابها قفصا ... ثم راحت في الليل تنتظر
وأنا والهدوء نرقبها ... ودموع الخريف تنهمر...
هوّمت تستجمّ هاذيةً ... واعتراها في صمتها ضجر
وتدلّى خيطٌ به وهَنٌ ... فاذا العنكبوت تنتحر

* * *

إيه حادي النجوم غنّ لها ... لم يهدهد حنينها وتر
ولتشيّع باللحن بائسة ... نحو وادي الفناء تنحدر !
آثرت موتها وما جزعت ... وتلاشى من نفسها الحذر
ففدا بيتها لها كفناً ... وعليه من بؤسها صور !
همُّها أن تعيش هانئة ... فاذا العيش كله كدر !
ما لها والحياة قاسية ... وجراد الفساد ينتشر ...
وبنو البؤس في مراقدهم ... كفروا بالحياة فاندثروا
في كهوف الرؤى تصارعهم ... نغمات الشكوى وتنتهرُ
وأفاعي الحرمان جائعة ... تتلوى فيطفر الشرر !...
هذه الارض كهف عزلتهم ... أتراهم عناكب بشر ؟..
يمرح الحقد في سرائرهم ... وعقود الآمال تنتثر
لا يبالي أولو الثراء بهم ... لا تلمهم يا ليل إن كفروا
يطفئون البلوى بنشوتهم ... لا رجاء يغري ولا سمر
من كروم النسيان خمرتهم ... في كؤوس الاوهام تُعتصر
دفنوا في الدجى رغائبهم ... عن عيون الوجود فاحتقروا!

مصطفى محمود
من اسرة الجبل الملهم /